الفصل الثامن عشر

بريد الجزيرة

حطمت العاصفة أشياء عديدة وغرق كل شيء، وتحطم جسرنا وانفجرت أنابيبنا. بات لدينا الكثير من المهام لنفعلها. وبعد أيام من العمل، شعرت أن الملل أخذ يتسلل إلى نفس الأولاد. حان موعد القيام بمغامرة جديدة.

قرر إيرنست أن يمكث معي أنا ووالدته، في حين استعد بقية الأولاد للذهاب في رحلة إلى المزرعة، واصطحبوا معهم ستورم وجرامبل والكلاب. لاحظت أن جاك أخذ معه قفصًا مليئًا بالحمام، لكنني لم أعر الأمر اهتمامًا.

في الصباح التالي، وأنا وزوجتي وإيرنست نجلس في الشرفة، تطرقنا إلى الحديث عما يفعل الأولاد في مغامرتهم. طلب منا إيرنست أن ننتظر فحسب، وسنعرف كل شيء اليوم التالي. لكن عندئذ طارت حمامة إلى الحظيرة فهرع إليها إيرنست الذي عاد إلينا حاملًا قطعة ورق صغيرة في يده.

قال إيرنست: «إنه خطاب من مكتب بريد الحمام!»

ضحكنا من المفاجأة الرائعة.

قرأ إيرنست الخطاب على مسامعنا: «قتل ضبع أحد الخرفان وحملين، لكننا تولينا أمره. جميعنا بخير. نرسل حبنا للجميع. فريتز.»

ومنذ ذلك الحين ونحن نتسلم كل ليلة من حمامة خطابًا يُطلعنا على أخبار مغامرات الأولاد. بعد معركتهم مع الضبع، أخذ فريتز زورق الكياك من الشاطئ وأبحر في النهر، وأمسك الصبيان الموجودان على الشاطئ زوجًا من البجع الأسود. وحين كانوا هناك رأوا أيضًا حيوانًا رائعًا يركض خارجًا من الغابة. ومن خلال وصفهم له عرفت أنه كان حيوان التابير. وعندئذ عادوا إلى المزرعة ليجمعوا كل القطن والأرز الذي يستطيعون جمعه.

بعدها اتجهوا إلى تل الآمال الذي وجدوه محتلًّا من القردة أيضًا التي هاجمتهم عندما وصلوا هناك. وبعد درء هجمات القردة، قضوا ليلة طويلة وموحشة وحدهم.

كتب فريتز إلينا: «كنا خائفين لأننا سمعنا إبان الليل أصوات جلبة مرتفعة للغاية حتى إن كل الحيوانات فرت على إثرها. كان زئيرًا كصوت الفيل أو الأسد، حتى إن الكلاب ارتعدت. وانتشرت آثار أقدام عملاقة في كل مكان. تعال إلينا يا أبي، نحن سالمون، لكننا لسنا قادرين على الصمود لهذا الخطر!»

بعد قراءة هذه الرسالة الأخيرة التي جاءت بها الحمامة، وثبت من مكاني وهرعت إلى حماري، وطلبت من إيرنست أن يلحقني في الصباح التالي هو ووالدته ومعهما مؤن. سرت في الليل في ضوء القمر ووصلت لاهثًا إلى حيث الأولاد في الصباح. انفرجت أسارير الأولاد لدى رؤيتي، وذهبنا لتفقد آثار الأقدام. ظننتها تخص فيلًا، لكن كلما أمعنت النظر فيها، زاد ظني أنها لا بد أن تكون آثار أقدام قطيع بأكمله من الفيلة. ومع ذلك لم تكن موجودة في أي مكان حولنا كي نراها، فقضينا كلنا الليلة ملتفين حول النيران نقص حكايات في حماس كبير سرق من أعيننا النوم.

في الصباح التالي، وصلت زوجتي وإيرنست ومعهما النعامة إلى مخيمنا وسعدا برؤيتنا جميعًا سالمين. وقررنا أن نصنع جدارًا كي نبعد الفيلة عنا ثم قام الأولاد بالاستطلاع. أبحر فريتز في النهر بزورقه وعثر على موز ونباتات الكاكاو، وعندما عاد أخبرنا بما رآه.

قال فريتز: «رأيت ما بين خمسة عشر إلى عشرين فيلًا ترعى بجانب النهر وتغتسل في المستنقع، ورأيت نمر اليغور المرقط على ضفاف النهر! وأنا أقترب من الفيلة بدأت المياه تبقبق حول الزورق، فظننت أنني جدفت إلى ينبوع مياه، وعندئذ ظهر وحيد القرن إلى جانب زورقي مباشرة فارتعدت فرائصي! فاستدرت وجئت مسرعًا إليكم!»

كانت قصة رائعة وقد عرفتنا بطبيعة الأرض حولنا. أعطى فريتز أخاه جاك حقيبةً، وكانا يتكتمان على أمر ما. وترجاني فريتز أن يعود إلى منزلنا بالزورق فسمحت له.

شققنا طريق العودة، وحمل جاك الحقيبة على ظهر سيد إعصار. وعندما وصلنا الحصن الصخري، وضع حقيبته في المستنقع. في تلك الليلة جلسنا لنستمع إلى حكايات فريتز عن مغامراته في زورقه. وفجأة سمعنا صوت جلبة مرتفعًا وغريبًا يأتي من اتجاه المستنقع. قفز جاك وركض في الحال ووثب بقية الأولاد على أقدامهم. التفت لأرى فريتز يضحك وانتظرت حتى أرى ما سيحدث.

سرعان ما وصل جاك بحقيبته المبللة، التي فتحها تحت أقدامنا ومنها أسقط زوجًا من الضفادع العملاقة.

قال جاك: «أعرفكم بجريس وبيوتي.»

عندها انفجرنا كلنا في الضحك، ونقنق الضفدعان على نحو مضحك. كانت هذه عودة جديرة بالذكر، وأوينا كلنا إلى الفراش مبكرًا منهكين وخائري القوى.

في اليوم التالي عدنا كلنا إلى العمل، وبدأنا مشروعًا جديدًا لوضع صارٍ للعلم ومدفع في جزيرة القرش تحسبًا للمخاطر. كانت خطتنا أن نرفع علمًا أحمر رمزًا للخطر إذا اكتشفناه تحذيرًا للآخرين، وعلمًا أبيض في حالة الهدوء. وعندما انتهينا من المشروع تمامًا، جعلت الأولاد يحتفلون بإطلاق قذيفة مدوّية من المدفع رنت أصداؤها في أنحاء الجزيرة مما جعلهم يهللون فرحين.

الفصل التاسع عشر

لسنا وحدنا

سارت حياتنا على هذا المنوال سعداء منهمكين في العمل. مرت عشرة أعوام بنفس الطريقة تقريبًا شاهدنا فيها أبناءنا يكبرون ويصيرون رجالًا.

استمررنا نعتني بأرضنا، ونظفنا المستنقع وجعلنا منه بحيرة وضعنا فيها بجعًا للحفاظ على المياه من الغرباء. واستولت الأرانب على جزيرة القرش وازدهرت مزرعتنا.

صار فريتز الآن في الرابعة والعشرين من عمره، قوي البنية ومفتول العضلات ونشيطًا. وكان إيرنست يصغره بعامين، ويتسم باللطف والدعة إذ أحب الدراسة والقراءة. أما جاك الذي كان في العشرين من عمره فقد كان سريعًا ومرنًا كفريتز. وكان فرانز في السابعة عشرة من عمره واتسم بالذكاء وخفة الظل. كانوا كلهم رجالًا صالحين وشفوقين على أمهم وأحب بعضهم بعضًا.

كنا لا نزال نرجو أن نعود يومًا ما إلى صحبة أناس آخرين. وإبان إقامتنا في سويسرا الجديدة، استمر الأولاد في القيام بالمغامرات وغالبًا كانوا يخرجون بمفردهم للاستطلاع. وفي يوم من الأيام انطلق فريتز بزورقه وعاد في وقت متأخر في تلك الليلة ومعه حقيبة ثقيلة.

قال فريتز: «لقد عثرت على الكثير من الأشياء أثناء ترحالي يا أبي. بل صادفت أيضًا قاعًا مائيًّا ضحلًا مليئًا بالمحار الضخم، فغطست فيه وفتحت المحار لأجد هذه اللآلئ.»

تجمعنا كلنا لنرى كنزه.

قلت له: «حسنًا، ما أروعها! لكن لا قيمة لها بالنسبة لنا هنا. ربما يومًا ما تصبح لها قيمة.»

عندئذ أخذني فريتز على انفراد.

قال في حماس: «أبي، ثمة شيء رائع آخر حدث، لقد عثرت أيضًا على أحد طيور القطرس ملفوف حول رجله قطعة قماش قديمة، وعندما أمسكت به وبسطت قطعة القماش، كان مكتوب عليها كلمات باللغة الإنجليزية! تقول هذه الكلمات: «أنقذوا امرأة إنجليزية مسكينة من هذه الصخرة المدخنة!»

سألته في ذهول: «وماذا فعلت؟»

أجاب فريتز: «أخذت قطعة قماش وكتبت عليها: «لا تقلقي. النجدة قريبة!» وربطتها في رجل الطير وأطلقته. لكنني أتساءل الآن هل سيعثر عليها الطائر؟»

أجبته: «من الممكن أن تكون الرسالة قديمة للغاية. لا تخبر الأولاد بعد، فقد يزعجهم هذا الأمر، فلعل كاتبة الرسالة ماتت بالفعل منذ زمن.»

قال فريتز إنه شعر أن كاتبة الرسالة ما زالت على قيد الحياة، ولعل الدخان الذي أشارت إليه منبعث من أحد البراكين. وأراد أن يعثر عليها، وعلى هذا، بعد نقاش طويل، قررت أن أسمح له بالذهاب.

قلت له: «أولًا، سننطلق معًا، وبعدئذ سأتركك تذهب بمفردك.»

بعدها بفترة وجيزة انطلقنا مع إخوته وتركنا زوجتي وفرانز فحسب، كي أحاول أن أطلق فريتز بمفرده كي يعثر على المرأة المسافرة، فجعلت فريتز يضع زورقه على متن قاربنا وأبحرنا كلنا.

أبحرنا إلى أن بلغنا «خليج اللؤلؤ»، الذي أسماه فريتز بهذا تيمنًا باللآلئ الثمينة التي عثر عليها حيث عثر على الرسالة. نصبنا خيمتنا على الشاطئ وأضرمنا النيران، وذهب الصبيان الأصغر للاستطلاع على الشاطئ. بعدها مباشرة سمعت أنا وفريتز طلقات آتية من جهة الشاطئ، فهرعنا لنرى ما يحدث.

هجم خنزير بري متوحش على جاك الذي أطلق النار عليه، وكان الخنزير قد طرحه أرضًا وأصابه. اعتنينا بجاك الذي سرعان ما راح في النوم إلى جانب النيران يتعافى. وفي الصباح التالي انطلق فريتز للبحث، ووجدت أنا والصبيان الخنزير البري الذي أطلق جاك النار عليه ميتًا. كان الخنزير عملاقًا له أنياب كبيرة، وكان من الممكن أن تودي بحياة جاك بسهولة. وفجأة إذا بصوت زئير آتٍ من جهة الغابة، ومن بين الأشجار ظهر أكبر أسد رأيته في حياتي.

أخذ الأسد يجول في المكان ذهابًا وإيابًا يراقبنا مزمجرًا، وكنا نحن مرتعدين حتى إننا لم نستطع الحراك، ولم يكن بحوزتنا أي أسلحة. وأخذ الأسد يشتد ضراوة أكثر

فأكثر، ثم ركض نحونا فجأة، وعندما كان في الهواء دوت طلقة نارية. خرّ الأسد صريعًا على الأرض وظهر فريتز من بين الظلال. لقد أنقذنا كلنا من الوحش.

تجمعنا كلنا حول الأسد، فإذا بأنثى الأسد تخرج من الغابة، وبعد أن رأت رفيقها ميتًا، اندفعت نحونا أيضًا واضطر فريتز أن يطلق النار عليها بالمثل. حزنا كلنا لموت أنثى الأسد، لكن فريتز أنقذنا من موت محقق. رأيت أنه صار رجلًا بحق الآن.

تركنا هذه المحنة خلفنا، وركبنا قاربنا مرة أخرى. وبعد فترة استعد فريتز كي ينطلق بمفرده بزورقه الصغير ليقوم بمغامرته. وحين كان يستعد للانطلاق، أخبرت الصبيين أنه ذاهب للبحث عن اكتشافات جديدة. فدعونا تلك البقعة «بقعة الوداع» وكنا نشاهده وهو ينطلق. واصلنا إبحارنا بقاربنا وذهب فريتز في طريقه؛ رجل يبحث عن قدره. ولم يكن أحد سواي يعرف غرضه الحقيقي.

عندما عدنا إلى منزلنا، استبد القلق بزوجتي لدى علمها برحيل فريتز. أخبرتها أنه سرعان ما سيعود، كل ما هنالك أنه ذهب ليستطلع. وفي الواقع، لم يكن لدي أدنى فكرة عن متى سيعود. انتظرنا وانخرطنا في العمل، لكن بعد مرور خمسة أيام لم أستطع أن أمنع نفسي أنا أيضًا من القلق. لذا قررت أن نذهب كلنا في القارب للعثور عليه.

أبحرنا عائدين إلى المكان الذي افترقنا فيه عن فريتز عندما انطلق بزورقه. وحين وصلنا جزيرة القرش، مررنا فوق حوت هائل كاد يغرق قاربنا الصغير وهو يمرّ تحته. هدأنا مرة أخرى ثم واصلنا إبحارنا إلى أن رأينا فجأة شخصًا غامضًا يمر بنا في زورق كياك. وقف الشخص وراقبنا ثم قاد قاربه إلى ما وراء إحدى الصخور.

وفجأة جال بخاطري أن هذا الشخص قطعًا أخذ فريتز المسكين. رفعت رايتنا البيضاء وناديت عليه، غير أنه كان بعيدًا للغاية وما كان ليسمع صرخاتي، فتولى جاك هذه المهمة بدلًا مني لأن صوته كان أعلى كثيرًا من صوتي.

صرخ جاك: «تعال هنا، وإلا سنأتي إليك لننال منك!»

بعدها استدار القارب واتجه نحونا. وإذ بإيرنست ينهض ويصرخ.

قال إيرنست بصوت مرتفع: «مرحبًا يا فريتز!»

جاوبه فريتز وهو يتنفس الصعداء: «إنه أنتم! عندما رأيتكم، لم أتخيل أنكم عائلتي، ظننتكم قراصنة أو سكانًا أصليين، لذا اختبأت.»

روينا له مغامرتنا مع الحوت، وأخبرنا هو أنه عثر على جزيرة أخرى يمكننا أن نرسو فيها.

قال فريتز: «اتبعوني!»

بعدها استدار وانطلق بزورقه. تركت قيادة القارب للأولاد والتفت إلى زوجتي كي أخبرها بحقيقة مهمة فريتز، فحكيت لها عن الرسالة وأنه ربما يكون قد عثر على تلك المرأة. غمرت الفرحة زوجتي، لكنني رأيت أنها كانت قلقة أيضًا — وكذلك كنت أنا — بشأن ما ينتظرنا خلف الشاطئ.

حين رسونا على شاطئ الجزيرة، انطلق فريتز أمامنا حيث اختفى، فتحيرنا كلنا أين عساه ذهب، وإذا به يظهر مرة أخرى ممسكًا بيد فتاة.

الفصل العشرون

ساكن جديد على الجزيرة

قال فريتز: «أقدم لكم ... جيني مونتروز.»

وثب أولادنا فرحًا وهرعوا كي يعانقوا أول شخص يرونه من خارج عائلتنا منذ قرابة ما يزيد عن الثلاثة عشر عامًا، وانهالوا عليها بوابل من الأسئلة. وفي تلك الأثناء رأيت أن السعادة غمرت زوجتي لأنها عثرت على صديقة تشاركنا حياتنا.

ضحكت صديقتنا الجديدة وتسامرت معنا محاولة أن تجد طريقة لتخبرنا ما الذي حدث لها. كنا نتحدث جميعنا في وقت واحد، ضاحكين ومغمورين فرحًا.

وبعد ساعات حكى فيها بعضنا لبعض مغامراتنا، أوت صديقتنا الجديدة إلى الفراش. فسأل الأولاد فريتز كيف عثر على جيني. فبدأ يروي على مسامعهم قصة طائر القطرس.

قال فريتز: «كان معه رسالة مربوطة في رجله، ولم أطلع أحدًا على الأمر سوى أبي. رددت على الرسالة بمثلها، ثم غادرت بزورقي. عثرت على العديد من الأشياء الرائعة أثناء ترحالي، وكنت سأتوقف عن المضي قدمًا، غير أنني كنت في مهمة. وعندما بلغت أحد الخلجان الصغيرة، استرحت وأضرمت النيران وأعددت طيرًا لأتناوله. وعندئذ خرج من بين الأجمة نمر لامع العينين قفز نحوي. هجم نسرنا على النمر وشاغله لوقت كان كافيًا لأحضر فيه بندقيتي. صوبت بندقيتي في اللحظة المناسبة وتمكنت من قتله بطلقة واحدة، غير أن نسري سقط ميتًا أيضًا.

عدت إلى الزورق بعدما دفنت النسر صديقنا، وانطلقت في البحر شاعرًا بالحزن والوحدة، لكن هذا لم يدم طويلًا، فبعد فترة وجيزة كنت أمر من أحد المنعطفات ورأيت سحابة من الدخان تتصاعد، فأسرعت بزورقي نحوها متحمسًا لاهثًا. ركضت على

الشاطئ باتجاه النيران لكن لم يكن أحد هناك. وعندئذ رأيت أحدهم يركض؛ لقد كانت جيني.

قادتني جيني إلى الكوخ الذي صنعته باستخدام العديد من المكونات التي أتت بها من حطام سفينتها التي انجرفت نحو الشاطئ منذ ثلاث سنوات، وكما فعلنا، صنعت جيني العديد من الأشياء وتعلمت صيد الحيوانات والسمك. وهي ابنة أحد الضباط الإنجليز، وقد كانت في طريقها على متن إحدى السفن لمقابلة والدها عندما تحطمت سفينتها هنا. وكانت على متن قارب إنقاذ انقلب بمن فيه ونجت هي وحدها. بعدما استعادت قوتها، كانت تربط رسالة برجل أي طائر تمسكه على أمل أن يعثر أحد عليها. أنصت إلى قصتها، وعندما كنت في زورقي للقيام برحلة أخيرة لصيد السمك قبل أن أتجه لأخذها لأرجع بها إلى المنزل، التقيتكم. ظننت في بادئ الأمر أنكم قراصنة وأن كل شيء قد انتهى. لكن حمدًا لله أنه أنتم!»

بعدما انتهى فريتز من حكايته، كان لدى الجميع العديد من الأسئلة. تحدثنا بحماس ووضوح قدر استطاعتنا بلغتنا الإنجليزية الضعيفة إلى أن تمكن التعب منا جميعًا. في الصباح التالي، حيًّا الأولاد كلهم جيني مرة أخرى بحرارة وفضول، وسررنا جميعًا أن ندعو جيني إلى بيتنا وأن نضمها إلى عائلتنا. كان اليوم جميلًا وتوقفنا في جزيرة القرش كي نطلق تحية من أجل جيني فيما أخذنا نريها منزلنا المتواضع.

كان رد فعلها ينم عن الانبهار وكأنها في قصر، فلقد أمضت وقتًا طويلًا وحدها، وقد أنجزنا نحن الكثير من الأشياء حتى إنها بدت في ناظريها مملكة بحق. ومزح جاك قائلًا إن جميع خدامنا ولوا الأدبار منذ أيام معدودات فحسب. وتفوق الأولاد على أنفسهم بأن وضعوا العشاء في كل أطباقنا، وأحضرت زوجتي فستانًا لجيني كي ترتديه وتشعر بالراحة. حظينا بوجبة رائعة ثم اصطحب الأولاد جيني في رحلة يرونها فيها كل أراضينا.

في اليوم التالي، بدأنا نحزم أغراضنا مرة أخرى من أجل الشتاء الذي كنا نعلم أنه آتٍ لا محالة. وحين كنا نعمل، عامل الأولاد جيني كأنها ملكة، فوضعوا لها سرجًا على إحدى الأبقار لتركبها جانبيًّا. ولم يمض وقت طويل حتى سارت واحدة منا في مملكتنا بالجزيرة. وقد أدخلت بهجتها السرور على قلوبنا.

مع ذلك، سرعان ما حلّ فصل الشتاء ورجعنا إلى الحصن الصخري لانتظار حلول أيام أفضل، لكن وجود جيني جعل أيامنا هناك سعيدة، حتى إن الشتاء بدا قصيرًا.

وعلمتنا جيني أن نحسّن لغتنا الإنجليزية، وعلمناها نحن لغتنا قبل حلول فصل الربيع.
كم كان وقتًا رائعًا!

الفصل الحادي والعشرون

ترحيب ووداع

بعدما انقضى الشتاء، خرجنا كلنا مرة أخرى كي نستمتع بالربيع. كان هناك الكثير لنقوم به من أجل عائلتنا الممتدة، وقد استقبلنا الأيام الجديدة في سعادة غامرة.

وفي يوم من الأيام، كان فريتز وجاك بالخارج في جزيرة القرش يرفعون رايتنا عندما سمعنا صوت انفجار غريب؛ صوت ثلاث طلقات من مدفع. لكن هل ما سمعناه حقيقي؟ هرعنا كلنا إلى الشاطئ كي نتأكد. لقد احترنا وسعدنا وخفنا، كل هذا في الوقت نفسه؛ فتُرى هل كان أولئك بحارة مسالمين أم قراصنة مهاجمين؟ وإذ بالقارب الشراعي يصل من الجزيرة وينزل منه جاك وفريتز ليحيونا.

سأل فريتز: «هل سمعت هذا؟ ماذا سنفعل يا أبي؟»

نظرت إلى السماء لأجدها تزداد ظلمة.

قلت لهم: «ليس بوسعنا فعل شيء الليلة. سننطلق في الصباح لنرى مصدر هذه الجلبة.»

لم ير أي منا النوم في تلك الليلة، وفي الصباح هبّت عاصفة فقلبت الشاطئ رأسًا على عقب. علمت أننا لن نعثر على شيء في ظل هذا المناخ، وهكذا انتظرنا مجددًا، وكان الانتظار أليمًا.

في اليوم الثالث خرجنا إلى جزيرة القرش وأطلقنا مدافعنا. ولبعض الوقت لم يكن هناك أي صوت، لكن عندئذ سمعنا صوت إطلاق نيران مرة أخرى.

عدنا إلى شاطئنا نحمل خوفنا من أن تكون السفينة مليئة بالقراصنة أو أعداء من أي نوع. أبحرت أنا وفريتز بقاربنا الشراعي حاملين بنادقنا لمعرفة المزيد. أبحرنا لمدة ساعة ولم نعثر على شيء.

لكن بعدها، رأيت عبر المنظار ما بدا أنه سفينة. وحين اقتربنا منها، رأيت أنها سفينة بالفعل؛ سفينة إنجليزية! لكن تُرى ماذا عساها تفعل في هذا الطريق؟ شاهدنا الرجال الموجودين على متنها وشعرنا أنهم رجال شرفاء. عدنا لنخبر الباقين كي نستعد للقائهم. غمرت الفرحة عائلتنا وارتدينا أبهى حللنا وجهزنا قاربنا وجمعنا فواكه هدية وانطلقنا للقاء الغرباء.

ما لبثنا أن صرنا أمام السفينة، ورآنا الكابتن ولوح لنا بالصعود إلى السفينة. حاولنا كلنا أن نحتفظ بهدوئنا قدر المستطاع، لكن دون جدوى؛ فقد انبهرنا بشدة لدى رؤية البشر مرة أخرى. لم نعرف كيف نتصرف. دعانا القبطان إلى غرفته وطلب منا أن نخبره بقصتنا وكم أمضينا من الوقت هنا. كان قد ظن أن الشاطئ غير مأهول بالسكان، فأخبرناه بقصتنا ومغامراتنا، فاندهش حين علم أننا أمضينا ثلاثة عشر عامًا، وعندما أخبرناه بقصة جيني، انتفض من مكانه.

قال القبطان: «اقبلوا جمّ ترحيبي. أحد أسباب مجيئي إلى هنا في هذه الرحلة هو العثور على الآنسة مونتروز، لقد أرسلني الكولونيل والدها للبحث عنها. لا بد أن تقبلوا ضيافتنا على متن سفينتنا!»

وأردف قائلًا: «بصحبتنا على متن السفينة عائلة أيضًا يدعون آل وولستون. لا بد أن تلتقوهم؛ فالسيد وولستون عليل قليلًا وقد أخبرنا أن نرسو في مكان جديد لنعيش فيه، وهذا هو السبب الثاني لهذه الرحلة.»

رجعنا إلى مركبنا وأبحرت المركبتان نحو الشاطئ حيث حيينا آل وولستون عندما نزلوا من السفينة. لقد بدا غريبًا — وفي الوقت نفسه رائعًا — الوصول إلى هذه الجزيرة التي كانت ملكنا وحدنا لوقت طويل، وأن تعيش معنا عائلة أخرى على الشاطئ. لقد سعدوا بلقائنا، لكن سعادتهم لم تكن شيئًا بالمقارنة بالفرحة التي غمرتنا نتيجة للترحيب بأول ضيوف لنا على الإطلاق في جزيرتنا «سويسرا الجديدة»! قضينا وقتًا بعد الظهيرة نتبادل التسلية بقصصنا وتعارف بعضنا بعضًا، فجعلنا الجميع يشعرون بالراحة وأنهم مُرحب بهم.

في تلك الليلة تحدثت أنا وزوجتي على انفراد؛ إذ أردت أن أخبرها بشيء أثار ضيقي أيما إثارة؛ بعد قضاء زمن طويل على هذه الجزيرة، وبعد مرور أكثر من عقد من الزمن على العمل بها، شعرت أنها وطني وأنني لست بحاجة إلى إنقاذ. لقد كنت رجلًا سعيدًا، وليست لدي أدنى رغبة في ترك المكان، وأخبرتها أنني أرغب في المكوث في سويسرا

الجديدة التي باتت وطني بالفعل الآن، وتمنيت أن تكون هي أيضًا شاعرة بنفس الشيء. وشعرت بالارتياح لدى معرفتي أنه تراودها نفس المشاعر أيضًا، فتعانقنا فرحًا، سعداء بهذا التناغم العميق. انتظرنا حتى اليوم التالي لنعرف رد فعل الأولاد تجاه الفكرة، وقررنا أنه إذا كانت لديهم رغبة في الرحيل فلسوف نترك لهم حرية الاختيار.

في صباح اليوم التالي رسا القبطان بالسفينة في خليج الأمان حتى نحضر طاقمه إلى الحصن الصخري كي نريهم منزلنا. تقدمنا فريتز وجاك لتجهيز كل شيء، وحين وصلت السفينة أطلق الصبيان قذائف المدفعية في جزيرة القرش تحيةً لهم، فابتهج جميع من على متن السفينة.

وعند العشاء أعرب لنا مستر وولستون عن رغبته في استيطان أرض جديدة من أجل صحته العليلة. أخبرنا أنه نعم في الليلة المنصرمة بنوم هانئ لم ينعم بمثله في الآونة الأخيرة، وأن هذه الأرض بهرته وأسرت فؤاده. فعبرت له عن جمّ ترحيبي بمكوثه هنا هو وعائلته وتشارك جزيرة سويسرا الجديدة معنا. أخبرناهم أنه ستحلو لنا الصحبة وأنهم سيجدون الجزيرة تتمتع بالخيرات الوفيرة ومريحة. قفز مستر وولستون من مكانه ليعانقني وتعالت الضحكات وعمّ الابتهاج والسرور من أجل صداقتنا الجديدة وحظنا السعيد.

هتف الجميع: «فلتحيا سويسرا الجديدة!»

قال إيرنست بخفة ظله المعهودة معبرًا عن القرار الذي توصل إليه: «يحيا أولئك الذين سيمكثون هنا.»

سألَت جيني: «وماذا عمن سيرحلون منا إلى إنجلترا؟»

ردد فريتز: «أجل، ماذا عنا؟» فعرفت عندئذ أنه ينوي الرحيل، ورأيت أنه سيكون سعيدًا.

فرددت قائلاً: «مرحى لكما!»

قال جاك: «سأمكث أنا في الجزيرة، وبرحيل فريتز سأكون أمهر راكب حيوانات وأمهر رامٍ في الجزيرة!»

تعالت ضحكات الجميع لدى سماع هذا، وسألت فرانز عن رغبته.

أجاب فرانز: «أنا الأصغر وأظن أنه يجدر بي الذهاب إلى سويسرا القديمة للالتحاق بالمدرسة، لكنني سأعود في الوقت المناسب.» صفقنا كلنا لدى سماع هذا ورأينا أنها فكرة رائعة. قطعًا سننعم كلنا بالسعادة.

أمضينا الأيام التالية نجهز أولئك الذين سيمكثون وأولئك الذين سيرحلون. كان من المقرر أن يقطن آل وولستون وابنتهم منزلًا هنا، وقد تحدثنا كلنا عن كيف سيخبر القبطان الناس في الوطن عن أرضنا، وعندئذ سيأتي مستوطنون جدد إلى أرضنا كي تصبح مستوطنة بحق، فهذا هو أقصى ما نحلم به.

وقبل أن يرحلوا أخبرني فريتز أنه يتمنى الزواج من جيني، فباركت قراره. ودار حوار طويل مع كل من ابنيّ وأخبرتهما أنني فخور بهما، والآن سيذيع صيتنا في أنحاء أوروبا وسيسمع الجميع عن مستوطنتنا الصغيرة.

وهذه هي مغامراتنا وكيف أصبحنا مستوطني سويسرا الجديدة. استمتعنا — نحن عائلة روبنسون السويسرية — بهذا الوقت أيما استمتاع.

طلبت من فريتز أن يأخذ مذكراتي اليومية لتخرج في صورة هذا الكتاب ليعطيه لكل الشباب في كل الأرجاء، فقد أردتهم أن يعرفوا أن العائلة يمكن أن تكون سعيدة مجتمعة مهما كان المكان الذي هم فيه أو الصعاب التي تجابههم. معًا صنعنا وطننا ومكاننا في العالم. ففي أحضان العائلة نحن لسنا وحدنا أبدًا.


هنداوي